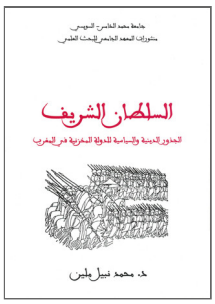

محمّد نبيل مُـلين

السلطان الشريف – الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب

Centre Jacques-Berque

الفصل الرابع: الجيش... قلب الجهاز المخزني

DOI : 10.4000/books.cjb.956
Éditeur : Centre Jacques-Berque, Faculté des lettres et des sciences humaines et sociales
Lieu d'édition : Rabat
Année d'édition : 2013
Date de mise en ligne : 17 octobre 2016
Collection : Description du Maghreb
EAN électronique : 9791092046311

http://books.openedition.org

Édition imprimée
Date de publication : 1 janvier 2013

Référence électronique
محمّد نبيل, مُـلين. *الفصل الرابع: الجيش... قلب الجهاز المخزني* In : *السلطان الشريف – الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب* [en ligne]. Rabat : Centre Jacques-Berque, 2013 (généré le 16 mai 2023). Disponible sur Internet : <http://books.openedition.org/cjb/956>. ISBN : 9791092046311. DOI : https://doi.org/10.4000/books.cjb.956.

Ce document a été généré automatiquement le 16 mai 2023.

الفصل الرابع: الجيش... قلب الجهاز المخزني

خلافا للبيوتات الحاكمة المغربية السابقة لم يصل البيت الزيداني إلى السلطة بفضل العصبية. فقد اعتمد المرابطون والموحدون أساسا على الأقل للوصول إلى الحكم على قاعدة عقائدية قوية وعلى قوة وتلاحم اتحادي صنهاجة ومصمودة. أمّا المرينيون وبسبب غياب قاعدة شرعنة عقائدية فقد اعتمدوا فقط على القوة العسكرية لاتحادية زناتة وحلفائها العرب. وأمام غياب الشرعية الدينية حاول المرينيون تدارك ذلك بتحالفهم مع علماء المالكية وانتهاجهم السياسة الشريفية كما بيّنا ذلك آنفا. [1]

قد ساهمتصوفيةوكانت السياسة الشريفية التي انتهجها سلاطين فاس وازدهار الحركة ال في إبراز صورة سليل النبي كشخصية فوق قبيلة ومحايدة تتمتع بهالة من القداسة. كما أنّ منظومة السيطرة ذات المراكز المتعددة التّي أسسها المرينيون قد أدّت إلى تشظي النسيج القبلي إذ لم تعد أيّ عصبيّة تمتلك ما يكفي من الموارد البشرية لغزو كلّ الأراضي المغربية فضلا عن الأراضي المغاربية والصحراوية. ويعدّ البيت الوطّاسي الذي لميتمكّن من السيطرة إلاّ على جزء من شمال البلاد خير مثال على ذلك. [2]

استفاد البيت الزيداني كما ينبغي من الوضعية السياسية والعقدية التي كان يعيشها المغرب آنذاك. فمنذ ظهورها سنة 1510 حاولت تلك العائلة المالكة وهي التي لم تقم على عصبية قبلية إنشاء جيش عصري ومختلط لمواجهة أعدائها. و قد كان هذا الجيش يمثّل قلب النظام المخزني والجهاز الذّي حظي بعناية خاصة من طرف السلاطين. [3]

كان إنشاء جيش قويّ وعصري أحد الهواجس الكبرى للسلاطين الزيدانيين. وتؤكّد كل المصادر الموجودة بين أيدينا المجهودات التّي بذلها السلطان الشريف محمّد الشيخ المهدي وخلفاؤه لتبني التقاليد العسكرية الحديثة وخصوصا العثمانية والإسبانية. وقد وجب انتظار وصول السلطان عبد الملك لنرى تسارع هذا النسق. حاول هذا الأخير قلب التقاليد العسكرية للبلاد باعتبارها بالية وتبني التقليد العسكري العثماني ما أدّى إلى ردّة فعل عدائية من قبل كبار الضباط والأعيان. ومرّة أخرى كان أحمد المنصور أكثر حذرا وتوفيقا مقارنة بأخيه. فقد حاول إدخال عناصر تنظيم جديدة كما يظهره استشراء المصطلحات العسكرية العثمانية مع المحافظة على التقاليد العسكرية المحلية. [4]

في مقال مميّز خصّصه للجيش والأسطول المغربي في الحقبة الزيدانية استعمل المستشرق أندري دزيوبنسكي كلّ الأدوات المتاحة لإعادة رسم تاريخ هذه المؤسسة . ولكنّه لم يكن يملك الأدوات اللازمة لمتابعة تطوّر هذه المؤسسة طوال[566]ودراسة تنظيمها عهد المنصور ممّا يفسّر عدم ذكر حالة الجيش المغربي آنذاك إلاّ في مناسبات قليلة. ولحسن الحظّ وقع اكتشاف العديد من المصادر ونشر أخرى منذ صدور هذا المقال ممّا يمكننا من تكميل الصورة بتقديم عناصر جديدة عن تكوين الجيش الشريف وتنظيمه خلال هذه الفترة.

جيش مختلط العناصر...

منذ تكوينه في حدود سنة 1510 من قبل القائم بأمر الله كان الجيش الشريف يتشكّل من عناصر ذات أصول مختلفة. فقد كانت نواته تتألف من قبائل جزولة ومعقل إلاّ أنّه ومع التوسع الجغرافي للمملكة تنوّع انتخال الجنود. وهكذا بدأ ظهور الأندلسيين والعلوج في تشكيلات جيش السلطان الشريف محمد الشيخ المهدي ليلعبوا دورا رياديا في الجيش الزيداني.

وفي عهد عبد الله الغالب كانت كلّ "عصبية" تشكّل فرقة مستقلة مثل جزولة والأعراب والأندلسيين والعلوج وزْواوة والحراطين والعبيد الأفارقة. وفي عهد عبد الملك المعتصم كان للأندلسيين والعلوج الأفضلية على بقية التشكيلات وأصبحوا العناصر الأقوى في الجيش الشريف[567].

وفي عهد السلطان أحمد المنصور أصبح تنظيم الجيش وتركيبته "العصبية" أكثر وضوحا. فقد كان الجيش الشريف يتكون من فرق نظامية وأخرى غير نظامية وينقسم إلى عدة كتائب تحمل أسماء مناطق أو عصبيات كان أهمها كتائب سوس وشراگة والأندلسيين والعلوج كما كانت هناك كتائب أقل أهمية كزْواوة والأفارقة. وكان أفراد الجيش النظامي يتقاضون أجورهم من المخزن لدى سُمّوا المَخْزَنيّة أو المْخَازنية باللهجة المحلية.

كانت كتيبة سوس وهي النواة التاريخية للجيش الشريف تتكوّن من عرب سوس وأمازيغها. وتضمّ هذه الكتيبة بشكل خاص أولاد جرّار وأولاد مُطاع والشراردة والرحامنة وهْسْكيمة . وتتكوّن كتيبة شراگة أي سكان شرق المغرب من قبائل عربية و مستعربة و أمازيغية[568]الخ رحّل وشبه رحّل لاسيما قبائل أشْجع وبني عامر ورِياح ومطغرة الخ. أما الأندلسيون الهاربون من محاكم التفتيش للحفاظ على دينهم أو المطرودون من اسبانيا إثر ثورة البشرات فقد شكّلوا كتيبة اصبحت سريعا ذات أهمية بالغة. كما كان المرتزقة أو العبيد الأوروبيون يشكلون كتيبة العلوج. وكان هؤلاء في أغلبهم ينحدرون منشبه الجزيرة الإيبيرية. كان الإسبان والبرتغاليون والباسك ممَثّلُون بكثرة بحكم القرب الجغرافي من المغرب. إلاّ أنه يمكن أن . أما أولاد يحيى الزواويين[569]نجد جنود إيطاليين وفرنسيين وانگليز ويونان وأتراك وفرس أصيلي منطقة القبائل في الجزائر الحالية فيشكلون الكتيبة الحاملة لاسمهم. ورغم كون الأفارقة منخرطين في الجيش الشريف منذ عهد عبد اللّه الغالب إلا أنّنا لا نمتلك معلومات عنهم.

أهم تشكيلات الجيش

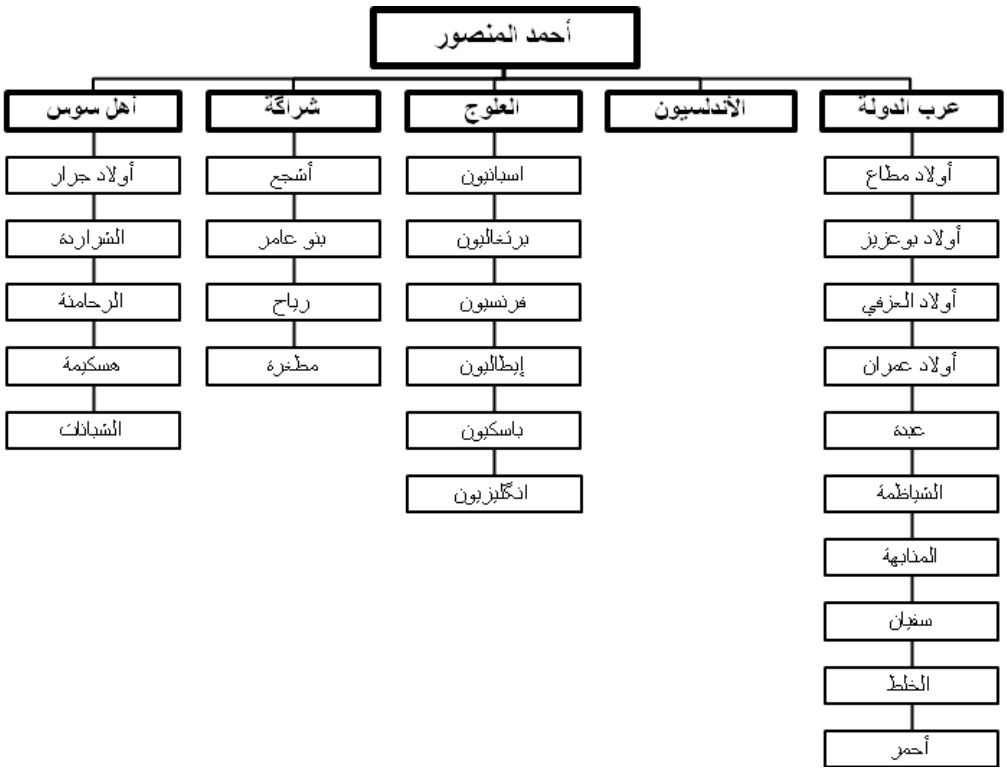

وقد أدّى تباين أصول مكونات جيش المنصور إلى تنوع أساليب التجنيد. ففي حين كانت تشكيلات سوس والأندلسيين وشراگة وزْواوة تجند مقابل أجور أو إقطاع أراض أو امتيازات ضريبية فإنّ تجنيد العلوج والأفارقة كان يتمّ بطريقة مختلفة.

كان العلوج في عهد أحمد المنصور يؤسرون أو يشترون. ولكن لم يكن نادرا أن يعرض الأوروبيون خدماتهم طوعا على السلطان الشريف[570]. فبعد معركة وادي المخازن امتلك السلطان الشريف المئات من الشباب المسيحيين تمّ تجنيد جزء منهم بعد مدّة من التعليم الإسلامي[571]. وقد تمّ أسر العديد من العلوج على إثر غارات المقاتلين المغاربة على الثغور المحتلة أو هجمات قراصنة الرباط على المدن الإسبانية وخصوصا جزر الخالدات. إلاّ أنّ الغالبية العظمى من العلوج تمّ شراؤهم. كان السلطان أحمد المنصور وأبناؤه يقومون بشراء العبيد الصغار من الجزائر وتونس ويستقدمونهم برّا بفضل وساطة تجار مسلمين ويهود[572]. وبعد وصولهم يتمّ ختانهم طوعا أو قسرا وكسوتهم على الطريقة المغربية وتلقينهم تعاليم الإسلام. ولكن السلطان لم يكن يدقق في تدين العلوج. فكان يكفي أن يحترم هؤلاء تقاليد الإسلام علنًا حتى تكون لهم حرية ممارسة شعائر أي دين شاؤوا. وتؤكّد المصادر الأوروبية وسجلات محاكم التفتيش المعاصرة للأحداث هذا الرأي.

ويبدو أن تجنيد الأفارقة حصل إثر الحملة الأولى لمحمد الشيخ المهدي على شنقيط. وفي كلّ الحالات فقد كانوا يمثلون كتيبة صغيرة مستقلة خلال فترة عبد الله الغالب. ومنذ السنة الأولى لحكم المنصور أشارت السفير الإسباني أنّ حرس باب قصر السلطان كانوا من السود[573]. وبعد حوالي قرن من ذلك تخبرنا المصادر المغربية أنّ السلطان العلوي إسماعيل [1672-1727] كوّن جيشه الشهير المسمى البخاري بتجميع نسل العبيد السود الذين كانوا في خدمة السلطان أحمد المنصور. وتواصل نفس المصادر أنّ السلطان العلوي حاول شراء كلّ هؤلاء العبيد من مالكيهم وتجنيد كلّ من أعتق منهم طوعا أو كراهة[574]. فهل كان هؤلاء الأفارقة فعلا من نسل العبيد الذين تمّ جلبهم إلى المغرب بعد غزو السودان للعمل في جيش المنصور وهل كان مشروع السلطان العلوي جديدا وأصيلا؟ يجب القول بادئ ذي بدء إن غالبية العبيد الذين تمّ جلبهم من السودان وكان عددهم قليل نسبيا تمّ استخدامهم في معاصر السكر أو التجديف في الأساطيل. وبالتالي فإنّ كتيبة الأفارقة لم تكن قد جيء بها من السودان. فبالإضافة إلى بقية القوات السوداء الخاصة بعبد الله الغالب توجد مصادر أخرى للتجنيد بلا شكّ. 12

وقد تمكنا بعد بحث طويل من إيجاد وثيقة غير منشورة تسلّط الضوء على ناحية أخرى من مسألة تجنيد الأفارقة. وتتمثّل هذه الوثيقة في رسالة تعود إلى سنة 1584 يطلب فيها السلطان الشريف من علماء الأزهر فتوى تبيح استخدام العبيد الأفارقة في الجيش. فبعد أن شرح للعلماء أنّ المغرب برمّته يعتبر أرض جهاد بسبب خصوصياته الجغرافية أكّد السلطان أنّ حكّام هذه البلاد في حاجة دائمة إلى الجنود لحماية أرض الإسلام وربّما توسيعها. فقد وجدت كلّ العائلات الحاكمة عند وصولها جيشا قويّا ومنضبطا تحت أوامرها إلاّ أنّه وبعد ثمانين عاما من الفوضى لم تجد العائلة الزيدانية سوى مؤسسة عسكرية متهالكة. ويضيف المنصور أنّ سكان البلاد غير قادرين على الحرب بسبب كسلهم وجبنهم وشهوانيتهم. لذلك تمّ إعفاؤهم من أداء الخدمة العسكرية مقابل دفع الضرائب الشرعية. 13

ولإصلاح ذلك الوضع يبين السلطان أنه استخدم وسيلتين تتمثّل الأولى في شراء كل العبيد السّود الذين تمّ جلبهم من السودان من مالكيهم أمّا الثانية فتتمثّل في البحث عن كل الأشخاص ذوي الأصول المملوكية كان قد استغلوا فترة الاضطراب للتحرر وتجميعهم وتجنيدهم قسرا مع التقيد بأحكام الشريعة. ولتبرير هذا الاختيار أكّد السلطان الشريف أنّ هؤلاء العبيد سيكونون جنودا مرموقين لشجاعتهم وانضباطهم. وفي الأخير أخبر السلطان العلماء المصريين أنّ نظراءهم من المغاربة قد وافقوا على هذا النهج وأنّ فتوى إيجابية لا يمكن لها إلا أن تمكّنه من المزيد من الشرعية[575]. 14

تؤكّد هذه الوثيقة غير المنشورة إذن أنّ السلطان الشريف أحمد المنصور حاول قبل غزو السودان بسنوات تشكيل كتيبة من السود تأتمر فقط بأمره لشكّه في وفاء السّكان المحلّيين. ومن أجل ذلك فقد حاول جمع السود كما كان يفعل العثمانيون في البلقان. ولكن السلطان لم يمض قدما في مشروعه هذا بل اقتصر في الغالب على تجميع بعض المئات من العبيد وذلك لتوفره على الآلاف من العلوج والأندلسيين. 15

وبعد وفاة المنصور ودخول البلاد في فترة الانحلال ابتعد الأندلسيون شيئا فشيئا عن الجيش وأصبح وجود العلوج نادرا. وقد حاول السلاطين العلويون الأوائل بعد حوالي ستين سنة من رحيل السلطان الشريف إعادة إحياء مشروعه السياسي القائم على المركزية وما فوق القبلية وبالخصوص في المجال العسكري. وبسبب غياب الأندلسيين والمرتزقة لم يكن للسلطان إسماعيل إلاّ إعادة المشروع الأصلي للمنصور من خلال إنشاء جيش عبيد البخاري. 16

وقد كان حجم القوات النظامية للجيش الشريفي المسمّات الانكشارية على غرار التشكيلات العثمانية يقدّر وفق المصادر المعاصرة بين الثلاثين والأربعين ألف رجل وقد بقي هذا العدد مستقرّا طوال فترة حكم المنصور[576]. وقد وزعت هذه الكتائب على الجهات الرئيسية للسلطنة وتقدّر أعداد المجموعات المتركزة بمراكش بين ستة عشر وثمانية عشر ألفا[577] وفي تادلة ألفين وخمسمائة رجل[578] وفي فاس بين عشرة وخمسة عشر ألفا[579]. وكانت كلّ مدينة ساحلية أو حدودية مثل الرباط والعراش وفي سوس تقدّر بألفي مخزني وشفشاون وتازة تأوي حامية من الجيش النظامي تتراوح بين المائة والأربعمائة رجل[580]. ويبدو أنّ كلّ الكتائب كانت بشكل من الأشكال ممثلة بإنصاف. وكان الجنود النظاميون يحصلون على أجورهم مرّة كلّ ثلاثة أشهر[581]. ورغم عدم امتلاكنا لمعلومات عن الأجور إلاّ أنّه وعلى ضوء المعطيات المتوفرة من قبل المصادر الأوروبية في أواسط القرن السادس عشرخمسين وثلاث مائة دينار كلّ ستة أشهر[582]. فإنّه يمكننا القول أنّها كانت تتراوح بين

لا يشكّل تعدد مكوّنات الجيش النظامي استثناء مغربيا بل هي سمة عند مجموع القوى المتوسطية في تلك الفترة وحتّى بعدها. وإذا كانت غالبية الجيش العثماني تتكوّن من عناصر مختلفة الأصول وخصوصا من البلقان فإنّ أكثر من ثلث الجيش الإسباني كان يعود إلى أصول والونية [Wallonie] وحوالي ربع الجيش الفرنسي من المرتزقة السويسريين والإيرلنديين والاسكتلنديين. كما التجأ الملوك الانكليز إلى المرتزقة لاسيما الفرسان الألبانيين. وكانت المدن والإمارات الإيطالية تتعاقد مع مرتزقة بورگينيين وألمان ومجريين وفرنسيين الخ[583].

وإلى جانب الجيش النظامي فقد كان السلطان يعتمد على فرق غير نظامية مكوّنة من الفرسان المنحدرين من أبرز القبائل البدوية في البلاد. هذا التقليد أسسه الموحّدون وحافظ عليه المرينيون والوطاسيون والزيدانيون. كانت إذن بعض القبائل البدوية المدعوّة بـعرب تقدم للسلطان عددا من الفرسان مقابل إقطاع أو امتيازات ضريبية لاسيما الإعفاء[584] الدولة. ويعتبر أولاد مطاع وأولاد جرار والشبانات وأولاد بوعزيز وأولاد العَزَفي وأولاد[585] من النائبة عمران وعبدة والشَيَاظمة والمَتَابهة وسفيان والخُلْط الخ أهم فصائل هذا الجيش غير النظامي. وتقدّم كلّ من هذه القبائل بين ألف وخمسمائة وتسعة آلاف فارس. وعلى الرغم[586] من أنّ الانگليزي هنري روبرتس [Henry Roberts] يلفت نظرنا أنه بإمكان السلطان أن يجمع إلاّ أنّ كلاّ من الشهاب الحجري وسالدانيا يؤكّدان أنّه خلال[587] في حدود مائتي ألف فارس المناسبات الكبيرة خصوصا عيد الأضحى يمكن للسلطان أن يجمع بين تسع وعشرين ألفا إلاّ أنّه ولتجنب المصاريف العقيمة فإنّه لم يكن يُبقِي معه بشكل دائم[588] وثلاثين ألف فارس. وعلى غرار القوات[589] إلاّ على حوالي ستة آلاف فارس يقودهم قائد القواد إبراهيم السفياني تشكيلات غير نظامية. وعلى سبيل المثال فإنّ أمير تادلة كان لديه أهم الجهات النظامية تضمّ. كما أنّ المدن الساحلية والحدودية كانت تضمّ فرقا[590] باستمرار حوالي أربعة آلاف فارس من القوات غير النظامية يتراوح عددها بين المائة والثلاثمائة رجل[591].

وهكذا يمكن للجيش الشريف في حالة حدوث نزاع كبير أن يجمع بين الخمسين والستين ألف رجل. ويتقارب هذا العدد مع الأرقام التّي قدّمها مارمول وطوريس في أواسط القرن السادس عشر[592] إلاّ أنّ جزءا كبيرا من هذا الجيش كان عصريا وغير قبلي بالمعنى التقليدي للكلمة.

وقد كان يوجد زمن المنصور تسلسل عسكري ثنائي. ففي حين حافظت القوات غير النظامية على التقسيم والتراتبية التقليدية فإنّ القوات النظامية أضافت إلى ذلك عناصر عثمانية. كان فرسان الجيش غير النظامي وهم مجهزون بدروع حديدية وخوذات وتُرُوسٍ من ألف[593]مستديرة من جلد الظبي وسيوف وحراب ينتظمون في أرحاء [مفردها رحى] . وكل رحى ينقسم إلى فرق ثم إلى وحدات[594]رجل ويقودها ضابط يطلق عليه قائد الرحى من مائة رجل يقودها مُقدّم. وكان مجموع الكتائب غير النظامية كما قلنا آنفا تحت قيادة قائد القُوّاد إبراهيم السفياني. وإذا كان القواد المقيمين إلى جوار السلطان يحصلون على رواتبهم من المخزن فالحاميات المتواجدة في الولايات لا تتلقى راتبا إلا وقت الحملات العسكرية. وفي بقية الأوقات يسند إليهم السلطان نصيبا من ضرائب المنطقة المتواجدين فيها إلى جانب العطايا بين الفينة والأخرى. وبالتالي فإنّ الأغلبية الساحقة من المجموعات غير النظامية تتمتّع فقط مثلما ذكرنا سابقا بالإقطاعات والامتيازات الضريبية. 21

أما تنظيم كتائب الجيش النظامي فكان مستمدّا في جانب كبير منه من التنظيم العسكري العثماني وخاصة من التنظيم العسكري لإيالة الجزائر حيث قصّى السلطان أحمد المنصور قرابة السنتين. وتنقسم هذه الأفواج إلى كتائب "شبه عرقية" تدعى جيشا وهو ما يقابل الوجق العثماني. إلاّ أنّه وخلافا للتنظيم العثماني فإن المغاربة يرتبطون مباشرة بالسلطان أو نائبه في والولاية مكان تواجد حاميتهم. وبعبارة أخرى فإنّ منصب آغا الانكشارية غير موجود في المغرب. 22

وطبقا للمقولة السياسية "فرّق تسد" فقد كان السلطان يعيّن على كلّ كتيبة أحد الباشوات من أصل أجنبي يكون مستقلا ولا تكون له غالبا علاقات جيّدة مع بقيّة القادة العسكريين.[595] وغنيّ عن القول إن أعيان العسكر هؤلاء لا يعودون إلا للسلطان أو لنائبه في الولاية. وتنقسم كلّ كتيبة إلى وحدات قريبة بعض الشيء من الأورطة العثمانية وتخضع كلّ وحدة والعشرات من[597] الذي يأتمر بأمره مجموعة من الأودا باشيات[596]إلى قيادة بولكباشي اليولداش أي الجنود.[598] 23

وبالرّغم من أنّ كتيبة الأندلسيين قد عُهِد بها إلى باشا عِلجي في أغلب الأحيان فإنّ تنظيمها كان متميّزا بعض الشيء. إذ يبدو أنّ الفرقة المكونة من أحرار وعلى وعي شديد بوضعيتهم الخاصة كانت تسعى إلى التميز عن العلوج والبَدْو وأهل الجبال. لذلك كان لهم تنظيم تختلط فيه التقاليد العسكرية العثمانية بالتقاليد الشريفية. وبالتالي فقد قسّمت الكتيبة إلى أرحاء يترأسها قواد أندلسيون ينوب عنهم كاهيات من أصل أندلسي كذلك. كما تحصل الأندلسيون على امتياز الإقامة في حيّ منفصل هو رياض الزيتون في مراكش وإقطاعات مع الحفاظ على رواتبهم الفصلية.[599] 24

هذا ويجب الإشارة إلى أنه في زمن الحرب يرسل السلطان عادة قوات مكوّنة من مجموع الكتائب والفصائل المذكورة تحت إمرة قوادّ تختلف أصولهم من حملة إلى أخرى. ولكن غالبا ما كان يفضّل قوادا من الأندلسيين أو الموالي. 25

لقد أدّى الاحتلال الإيبيري لبعض المدن الساحلية المغربية منذ بداية القرن الخامس عشر إلى ظهور "مقاومة شعبية" بقيادة أمراء حرب محليين يدعون مُقدّمين. وشيئا فشيئا أضحى الجهاد تجارة مربحة مثل بيع العبيد والطعام ونوع من الجزية والهدايا ممّا أدى إلى إنشاء بعض الإمارات المحلية المختصة في الجهاد على غرار بني عروس في القصر الكبير وبني راشد في شفشاون الخ. وفي عهد أحمد المنصور برزت عائلتان في هذا المجال التّقسيس . وقد جعل قادة تلك العائلات[600]في منطقة تطوان وسبتة وأبو الليف في جهة أصيلة وطنجة الحياة صعبة لحاميات الجند ولسكان ثغور الشمال. فبعد غارة على ثغر سبتة سنة 1588 تمكن مقاتلو تطوان من قتل المئات وأسر حوالي أربعمائة شخص أرسلوا إلى السلطان في . وبعد أربعة سنوات قام مقاتلو منطقة طنجة بغارة على جزء من حامية طنجة انتهت[601]فاس بأسر مائة من بينهم ابن الحاكم البرتغالي أيرس دي سالدنيا وهو مؤلّف أحد أهم مصادرنا.[602] 26

... بإمكانه خلق العديد من المشاكل

بالرغم من تجاوزه للعصبية القبلية فإنّ الجيش السلطاني كان ينقصه التجانس بصفة رهيبة. لقد كانت كل كتيبة متقوقعة على ذاتها باعتبارها مجموعة تدعي الانتماء إلى أصول متقاربة . و الأسوء من ذلك أنّ السلاطين كما سنرى لاحقا كانوا يشجعون التنافس بل[603]بل واحدة العداوة بين مختلف فرق الجيش. وقد كان السلطان الشريف أحمد المنصور إبّان حكمه الطويل مضطرا للتعامل مع مطامح البعض وعصيان البعض الآخر. وحتّى عندما كان ينجح في نزع فتيل الأزمة وتجاوز التمرد فإنّه لم يكن يفعل شيئا لإضفاء التجانس على جيشه وجعله قوّة موحدة عوض أن يكون جيشا سلطانيّا فحسب.

فبعد أسابيع فقط من وصوله إلى الحكم سنة 1578 تمكّن السلطان الشريف من إحباط مؤامرة مدبرة من قبل قادة ثلاثة فرق أندلسية وهم سعيد بن فرج الدُغالي ومحمد زرقون وأبو الفضل الغري. وتؤكّد المصادر المحلية والأوروبية التّي في حوزتنا أنّ القادة كانوا يطمحون إلى مبايعة الفتى مولاي إسماعيل ابن عبد الملك سلطانا للبلاد تحت الخلافة العثمانية[604].

وقد امتهن سعيد بن فرج القرصنة منذ استقراره بالمغرب زمن السلطان عبد الله الغالب وذلك بالرباط وتطوان قبل أن يدخل في خدمة المخزن بتوصية من الحاجب الحسن بن أبي . وقد كُلف من قبل السلطان بإنشاء كتيبة للأندلسيين تحت قيادته. إلاّ أنّ الموقف[605]بكر المراوغ للسلطان خلال ثورة البشرات سنة 1568 لم يستسغه القائد الأندلسي. وفي السنوات التالية انضمّ العديد من الفاعلين في هذه الثورة إلى تلك الكتيبة. وقد استغلّ المتطلع مولاي عبد الملك الفرصة لدسّ بعض رجاله من الأندلسيين فيها. وتمكّن أحدهم وهو أبو الفضل الغرّي من التدرّج في المناصب حتّى أصبح أحد قادة الكتيبة. كما كان له الفضل من دون شكّ في انضمام سعيد بن فرج الدُغالي إلى معسكر عبد الملك أثناء موقعة الرُّكن . واستفاد عبد الملك أيضا من[606]سنة 1576 ما مكّن هذا الأخير من الانتصار واعتلاء السلطة الخبرة السياسية والعسكرية للأندلسي محمد زرقون الملقب بالكاهية الذّي شارك أيضا في ثورة البشرات قبل اللّجوء إلى المغرب ليصبح أحد قادة الكتيبة الأندلسية. ثم لجأ إلى الجزائر للالتحاق بالمتطلّع المغربي[607].

وبعد وصوله إلى الحكم عين عبد الملك هذه الشخصيات الثلاثة في المناصب العليا للدولة. أصبح زرقون قائدا للكتيبة الأندلسية[608]ففي حين كان الدُغالي واليا على سوس والرباط والغرّي أحد الشخصيات المقرّبة من السلطان. وكان هؤلاء القادة الأندلسيون وبدافع من حنين إلى بلدهم الأمّ يميلون إلى تعاون وثيق بين المغرب والدولة العثمانية للعمل على استعادة الأندلس. وبعد وفاة عبد الملك سنة 1578 عرف القادة أنّ خليفته كان أقلّ ميلا إلى التعاون مع العثمانيين وإلى الاعتراف بخلافة الباب العالي فقرّروا قلب الحكم وتعيين ابن . وللوهلة الأولى كانت الأمور متاحة ففي حين أنّ الدُغالي كان يخطط لثورة في[609]عبد الملك سوس فإنّ زرقون أشعل تمرّدا في فاس عبر دفع الجنود للمطالبة بالبقشيش أي هدية التّسلطن. وقد حاول السلطان ومساعدوه استباق الأحداث لإحباط هذه المؤامرة التّي من شأنها دفع البلاد من جديد في أتون حرب أهلية. فبعد توزيع رواتب عدّة شهور على الجنود قام السلطان باستدعاء سعيد بن فرج الدُغالي إلى فاس على عجل. وحتّى لا يثير شكوك القائد دعا السلطان كلّ ولاة الجنوب للمشاركة في احتفالات معركة وادي المخازن[610].

وبعد وصوله إلى فاس وُضِع الدُغالي تحت الإقامة الجبرية إلا أنه تمكن من الفرار فأخذ طريق الرباط ليستقل احد قوارب القرصنة واللجوء إلى الدولة العثمانية. ويبدو أنّ السلطان بدأ سلسلة مفاوضات مع القائد الأندلسي عبر قائد القواد محمّد بن سليمان إلاّ أنه أمام تعنّت الدُغالي قرّر التخلّص منه. وبعث لهذا الغرض إبراهيم السفياني قائد سفيان وأحمد الزواوي وحدّو الزواوي قائدا زواوة وعبد الله التلمساني وعبد العزيز الافراني قائدا شراگة[611] وفي نفس اليوم من شتنبر 1578 لقي محمد زرقون وابو الفضل الغري نفس المصير[612] وباختياره قادة مختلف الكتائب لقتل قادة الأندلسيين قام أحمد المنصور عن قصد كما يذكر الفشتالي بخلق عداوة دائمة بينهم. ولم يبق للأندلسيين إلاّ تحيّن الفرصة للانتقام. هذا وقد قام السلطان بتعيين العلج منصور بن عبد الرحمان على رأس كتيبة الاندلسيين وأغرقها في الامتيازات كما فعل مع العلوج[613].

وقد تسببت الامتيازات التّي منحها السلطان الشريف للأندلسيين والعلوج في غيرة التشكيلات الأخرى وخصوصا زواوة الذين كان عددهم يقدّر سنة 1584 بقرابة العشرة آلاف رجل في جميع أنحاء البلاد. وقد قرّر قادتهم مبايعة الأمير عبد الله الأبيض حفيد السلطان الزيداني الأوّل مولاي أحمد گليز بمراكش[614]. بل إن جزءا من تلك الفرقة قد تحصّن لبعض الوقت بجبل

وأمام هذا الوضع قام السلطان بسجن كل الثوار بما فيهم عبد الله الأبيض. ولتهدئة الخواطر أمر بدفع منحة عامّة. إلاّ أنه كان يفكّر في التخلص من الفرقة المُكْلِفة والخطيرة. لذا قرّر إرسال حملة إلى بلاد شنقيط. وقد تكوّن الجيش الذي يقوده العلج محمّد بن سالم من زواوة فقط. وإذا كانت المهمّة الرسمية تتمثل في غزو هذا الجزء من السودان فقد كانت الأوامر تهدف إلى ترك العسكر وسط الصحراء. وبالفعل فقد قام الدليل طبقا لأوامر السلطان بالفرار ما جعل الحملة تتيه في الصحراء وتُبادُ عن آخرها[615]. كما أنّ جزءا كبيرا من زواوة حتّى أنّ الانگليزي هنري روبرتس يؤكّد[616] الذين بقوا بمراكش تمّ القضاء عليهم بحدّ السيف أنّ عدد زواوة في مراكش لم يتجاوز الألف وستمائة رجل سنة 1600[617].

ولم يمنع هذا الإنذار السلطان والأمراء من مواصلة تمييز العلوج والأندلسيين على حساب بقية مكونات الجيش. وقد قامت مجموعات كبيرة من شراگة بسبب شعورهم بالحنق بالالتحاق بصفوف مولاي الناصر سنة 1595 آملين في مستقبل أفضل. ورغم صفح مولاي المأمون عنهم إلاّ أنه وقع استبعادهم من الجيش الذي لم يعاودوا الانتماء إليه إلاّ بعد وفاة السلطان الشريف سنة 1603[618].

وإبّان حكم السلطان أحمد المنصور وقع التحكم بشكل كبير في قبائل المخزن أو عرب الدولة المعروفين بقلاقلهم من خلال قوة النار التي كانت متوفرة لدى التشكيلات النظامية إضافة إلى الامتيازات الإقطاعية والضريبية المغدقة من قبل السلطان. وحدها قبيلة الخُلط حادت عن هذه القاعدة. وبالفعل فقد كانت تلك القبيلة تمثّل منذ القرن الثالث عشر إحدى أهمّ الفِرَق في الجيوش المرينية والوطاسية. وقد وقفت إلى جانب الوطّاسيين ضد الحكم الزيداني الصاعد ممّا دفع السلطان الشريف محمد الشيخ المهدي بعد أن أصبح سيّد البلاد بشطبهم من سجلاّت الجيش وبمصادرة خيولهم ووضع حدّ لامتيازاتهم الضريبية وتشتيتهم في عديد الولايات[619].

وبقي الأمر كذلك إلى ما بعد معركة وادي المخازن عندما قام أحمد المنصور كتعبير عن امتنانه بإعادة إدراج نصف رجال القبيلة في الجيش مع جميع الامتيازات المصاحبة كما أعاد القبيلة إلى أراضي الأسلاف بأزغار [الغرب حالي]. ومع ذلك فقد ألحق بهم قبيلة أولاد مُطاع المخلصة له لمراقبتهم. وأدّى ذلك إلى اندلاع صراعات مستمرة بين القبيلتين ثم إلى حرب حقيقية. وتدخل السلطان في سنة 1582 لتهدئة الوضع وذلك لحاجته إلى فرسان الخُلْط لفتح واحات لتوات وتيگورارين. وقد غادر أولاد مُطاع المنطقة مقابل تعويضات مالية[620].

وفي سنة 1587 أمر السلطان القبيلة بتوفير فرقة من الفرسان لمواجهة التمرد الذي اندلع في توات. ولكن الخُلْط رفضوا الأمر وأعلنوا العصيان وهو ما أدى إلى إقصائهم تلقائيا من النظام العسكري السلطاني. لم يتأخر رد السلطان على جريمة التعدي على الذات الملكية تلك. فخلال إقامته في مدينة فاس سنة 1589 أرسل المنصور حركة بقيادة محمد بن بَجّة لمعاقبة تلك القبيلة. وقد صادرت قوات السلطان خيول القبيلة وأهلكت أفرادها.[620] 37

وقد أتاح تمرد مولاي الناصر الفرصة لقبيلة الخلط للعودة إلى الساحة السياسية. فقد اختاروا الانضمام إلى المتطلع وقاموا بشراء الخيول وطردوا القبائل المخزنية شيئا فشيئا. وفي هذه المرة كان انتقام السلطان بدون رحمة. لم يكتف الجيش النظامي بالقضاء على جزء كبير من السكان بل قاموا بترحيل غالبية من بقي على قيد الحياة إلى عديد الولايات وخاصة منها تامسنا والسودان.[621] 38

العلوج حماة النظام السلطاني

إذا كانت جميع مكونات الجيش الشريف قد حاولت إيقاع الضرر بالسلطان مرة واحدة على الأقل طيلة حكمه فإن العلوج لم يظهروا أي نوع من العصيان والتمرد. بل على العكس شكل هؤلاء دعما مخلصا وثابتا مثل الأندلسيين كما رأينا ذلك بمناسبة تمرد مولاي الناصر على سبيل المثال. وفي المقابل كان السلطان وأبناؤه وكبار أتباعه يثقون فيهم ثقة عمياء. لذا فقد تبوّأ العلوج أغلب المناصب العسكرية والمدنية في الدولة. 39

ويوضح بعض الباحثين هذه الظاهرة بالقول إن "المجتمعات الإسلامية في تلك الفترة ولاسيما المستقرة على ضفاف المتوسط كانت أكثر انفتاحا من المجتمعات المسيحية. و لم يكن شرف النسب يحسب أصلا بل كانت الجدارة والجرأة و الدراية هي المعتَمَدة بشكل . وفضلا عن انفتاح المجتمع الإسلامي كان الحكام في حاجة لأشخاص ذوي خبرة[622] رئيس" في مختلف المهن المتعلقة بالحروب العصرية غير مرتبطين بالنسيج السكاني المحلي الذي كان دائما في محل المتهم. كما كان العلوج يبحثون عن ترقي اجتماعي سريع ومضمون وهو ما كان الحكام المسلمون يوفرونه لهم لضمان ولائهم. لذلك فإن التحالف الذي يربط الحكام المسلمين بالعلوج تحالف موضوعي تحكمه المصلحة المشتركة. 40

ويمكن القول إن الاعتماد على العلوج يُعتبَر من الثوابت في التاريخ العسكري المغربي. فالحكام المغاربة ومنذ الحقبة المرابطية لم يتوانوا في التعويل على مرتزقة مسيحيين وأتراك وسود. ومع ذلك لم تنتشر هذه الظاهرة إلا مع الحكام الزيدانيين. ولأن هؤلاء كانوا يفتقدون للعصبية فقد عمدوا إلى التعويل على فرق مخلصة وذات خبرة قتالية عصرية مثلما هو الحال بالنسبة للجيش العثماني. وقد تفاقمت هذه الظاهرة لتبلغ ذروتها في زمن المنصور حيث تجاوز عددهم العشرة آلاف رجل. 41

ومثلما استعرضنا في العديد من المناسبات كان العلوج يشغلون أعلى المناصب في الدولة سواء منها المدنية أو العسكرية. وباستثناء القوات غير النظامية التي وقع إسناد أمرها إلى زعماء القبائل فقد كانت جميع كتائب الجيش النظامي تحت قيادتهم. وكان أغلب قواد المناطق الحدودية وجامعي الضرائب وسفراء السلاطين منهم أيضا. وعلى سبيل المثال فإن قيادة فتح السودان وحكومتها قد أسندت إلى عناصر من هذه الكتيبة. وحتى داخل قصر السلطان كان العلوج يتولون المهام الرئيسية مثلما استعرضنا ذلك من قبل وخاصة حماية السلطان. 42

كانت تتكون فرق الحرس السلطاني والذي أطلق عليه الفشتالي الداخلة من العلوج فقط. فبالإضافة إلى القبجية الذين كان يقودهم الحاجب مَوْلود الموكولة لهم حماية قصبة مراكش كانت هناك ثلاث فرق أخرى تلازم السلطان. وقد كان عدد أعضائها يتجاوز[623] وبوابات القصر الثلاثمائة رجل بحسب المصادر الأوروبية.[624] 43

ولأنها مستوحاة من حرس بني عثمان فقد كانت هذه المجموعات الثلاث ترتدي زيا شبيها بالزي العثماني. فقد كان البايك وهم الذين يرتدون قلنسوة صفراء مزينة بالذهب ورأسية من ريش النعام من ألوان مختلفة يحيطون بالسلطان في تنقلاته ويحرسون حجراته. وخلف هؤلاء نجد فرقة السولاق الذين يرتدون قبعات طويلة بيضاء تتدلى على أكتافهم وكانت تسريحات شعورهم موصولة في أعلى الجبهة بقصبات صُفْر مُذهّبَة يضاف إليها بمناسبة الاحتفالات بعض من ريش النعام الطويل الذي يقع تثبيته في أعلى الجبهة ويرسل إلى الخلف. وخلف أولئك نجد مجموعة أخرى يسمّيها الفشتالي لَبَرْدَرُش ويسميها تقرير اسباني بحرس المطارد. وكان جنود هذه الفرقة مسلحين بحراب ذي مقابض قصيرة وسميكة مزركشة بلوحات من حديد مثبتة بمسامير فضية. وكان الجذع الحديدي لتلك الرماح طويل وعريض وتنتصب في كل جانب من جنباته أنياب جميلة تشكلّ كل منها زاوية مستقيمة[625].

إن المصطلح الغامض لبرْدرُش المستخدم من طرف مؤرخ البلاط المنصوري قد استخدم من جديد من قِبَل الأخباريين المغاربة المتأخرين مثل الإفراني والناصري دون تعليق. وبالمثل فإن مترجمي هذين الكتابين على اللغات الأجنبية وناشر مناهل الصفا قد أعادوا استخدام المصطلح دون أدنى تفسير. أمّا أندري دزيوبنسكي فقد "أهمل" بكل بساطة ذكر حرس السلطان.

وقد تأملنا فرق الجيش العثماني جميعها علّنا نظفر بمرادف لفرقة لَبَرْدرُش. وظهرت أمامنا فرضيتان أدى إليهما البحث. تتمثل الأولى في كون المصطلح الذي استخدمه الفشتالي ليس إلا تعريبا للمصطلح الإسباني أَلَابَارْدو أي المِطْرَد المؤلف من رمح وفأس. وفي الثانية يكون مصطلح لَبَرْداروش تحريفا للمصطلح الفارسي تِبَرْدار أي حامل المطرد. ويمكن أن يكون الاختلاف بين الـلام والـباء ناجما عن خطء الناسخ. وبالنسبة للشين يمكن أن تكون تحريفا لحرف السين الدال على صيغة الجمع في المصطلح الإسباني: أَلَبَرْدِرس أو تحريفا للمصطلح التركي باشا. وفي كل الحالات فنحن على يقين بأن الفرق المعادلة لحَمَلَة المطارد المغربية في الجيش العثماني والإسباني هي على التوالي البلاطجة وأَلَبَرْدِروس.

التسلّح والتجهيز والتحصين

حظيت القوات النظامية تحت حكم السلطان الشريف أحمد المنصور بسلاح متطوّر استُلهم من التقاليد العثمانية والأوروبية وتمّ تعميم الأسلحة الناريّة. وإذا كان الحرس السلطاني مجهزا أساسا بالبنادق فإن الانكشارية كانوا مجهزين ببندقيات الفتيلة التي تسمّى في المراجع المغربية المِكحلة [بالعاميّة مْكحلة أو مُكحلة][626]. لا نملك مع الأسف أي وصف لتلك المعدّات. لكنّها على الأرجح لا تختلف عن الأسلحة النارية المستعملة في الحوض المتوسطي انگلترا وهولانداها كان يستورد منفي تلك الفترة بما أنّ معظم[627].

بالإضافة إلى ذلك حاول السلطان تصنيع أسلحة ناريّة في المغرب بمساعدة الأندلسيين المهاجرين[628]. لكنّ أكبر مصنع[629]. فقد جُهّزت عدّة مصانع في تازة وفاس وتارودانت لهذا الغرض والعلوج كان يوجد بمراكش ويسمّيه الفشتالي دار العُدّة وكان يديره حرفيون قادمون من انگلترا وفيه أيضا يتم صهر كثير من قطع الذخيرة من البرونز مختلفة العيارات.[630]وفرنسا وهولاندا[631]. لكننا للأسف لا وكانت هذه المناصع مختصة في صناعة المدافع الحديثة بشتى أنواعها نملك أيّة معلومات حول العدد الاجمالي للمدافع التي كان يملكها الجيش الشريفي. وعلى سبيل التقريب نعرف أن حامية العرائش كانت تتوفر على حوالي ستين مدفعا ممّا يشير إلى أنّ الجيش يمتلك عشرات القطع الموزعة على مجمل الحاميات[632].

وبالإضافة إلى دار العدّة يوجد مصنع بارود أسّسه السلطان عبد الله الغالب سنة 1558 واخران في فاس وتارودانت. وبحسب الأرقام التي يقدّمها مارمول كان دار العدة في مراكش تُصَنِّع حوالي ستة عشر قنطارا من البارود في الشهر. وفي سنة 1583 تمّ تخزين أكثر من ألفي قنطار[633] . ويمكن تفسير هذا الإنتاج الكبير باكتشاف عدّة مناجم لنيترات البوتاسيوم أو ما كان يسمى ملح البارود في المغرب في القرن السادس عشر وقد استثمرها الملوك سواء في الصناعة المحليّة أو في التصدير مقابل موادّ مصنّعة أو أسلحة عصرية. 49

كان الجيش النظامي يستعمل أيضا الأسلحة البيضاء. وكانت الرماح التي يبلغ طول قضيبها خمسة أمتار وثلاثة وأربعون سنتيمترا رمزا من رموز الحرس السلطاني كما تؤكّده رسوم الجاسوس خورخي دي هينين. وكانت هذه الرماح تستورد أساسا على غرار السيوف من هولاندا[634] . أما السيوف وهي مستقيمة لكن من المؤكدّ أنّ بعض العيّنات صنعت في المغرب ومضروبة فيبلغ طولها حوالي ستّين سنتيمترا حسب قطعة معاصرة أمكننا فحصها ضمن مجموعة خاصة في المغرب. أما الانكشارية فكانوا يستعملون سكاكين وخناجر ومُديات ذات نصل مقوّس تدعى گومِّية[635]. 50

أمّا القوات غير النظامية أو عرب الدولة فلا تتلقّى أيّ تجهيز من السلطان أو من السلطات المخزنيّة. ويلبس المحظوظون منهم كما ذكرنا سابقا زردا وخوذة ودرعا مستديرا من جلد المها ويحملون خنجرا ورمحا سيّئ النوعية باستثناء الخيالة الذين لا يفارقون السلطان وأبناءه. 51

ويسكن الجنود في المدينة في ثكنات بجانب القصر أو يمتلكون بيوتا كما كان الحال بالنسبة للأندلسيين بينما يسكنون أثناء الحركات تحت الخيام أو قياطين مصنوعة من الكتان أو من جلد الجمل أو الماعز. وتمتلك كلّ حامية عسكريّة مخزونها الخاص من الأسلحة والذخيرة والماء والطعام داخل القصبات[636] . لكن خلال الحملات العسكرية كان على سكّان المناطق التي يمرّ بها الجيش أن يوفّروا كلّ ما يلزم للحامية من طعام وملابس وخيام وحيوانات الخ مقابل إعفاءات المالية. وعندما يرفضون بإمكان السلطان أو قائد الحملة الحصول على ما يحتاج إليه الجيش عن طريق المصادرة[637] . وقد تواترت هذه الممارسة القديمة التي تسمّى المؤونة [بالعامية المونة] أو العدّة في المغرب حتّى بداية القرن العشرين. فخلال حركة السلطان الشريف أحمد المنصور إلى سوس سنة 1580 مثلا تكفّلت القبائل المحليّة بالمؤونة طوال الطريق المقسّم إلى عشرين مرحلة[638] . لكنّ السلطان كان يظهر شهامته في بعض الأحيان لحاجة في نفس يعقوب. ففي إحدى زياراته إلى فاس رفض مولاي أحمد المؤونة طوال رحلته لأنّ القبائل كانت تعاني سلفا من الجفاف[639]. 52

هذا وكان الجند يتمتّعون بعناية صحيّة يوفرها الجرّاحون والحلّاقون والصيادلة الذين يعملون في مَرِسْتانات قارة أو متحركة[640] . ولنقل القوات والعتاد عادة ما يقع استعمال الخيول والجمال والبغال والحمير. ويمكن اللجوء أيضا في حالات ظرفية الى العربات والمراكب لنقل العُدّة والعتاد والطعام. كان الحمّالة والعمّال الذين يرافقون الجيش ويهتمون بالأمور اللوجستية في العادة من الجبليين الذين يسمّون حسب المصادر الأوروبية إبودرارن و يعيّن أغلبهم من قبائل إدّا أعقل وإدّا ولطيط[641] . ويمكن للحركة التي نظّمها السلطان الشريف سنة 1590 لفتح السودان أن تكشف لنا عن العدّة العسكريّة والوسائل اللوجستيّة المجنّدة في مثل هذه الحالات. فقد كان عدد الجند يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل أُعطوا ألفين وخمسمائة بندقية صغيرة وستين بندقية مخصّصة لحرس قائد الحركة وستّة مدافع كبيرة وعدد غير محدد من المدافع الصغيرة وحوالي ألف وخمسمائة سيف ورمح. كما أعطوا عشرة قناطير من البارود المسحوق وثلاثمائة قنطار من البارود ومثلها من الرصاص بالإضافة إلى الدروع والحديد والمشاقة والقطران والراتنج والقار والحبال والكتان والمرّ والمعاول والأدوات اللازمة لبناء وهدم حيطان الطين. وحسب مختلف المصادر فقد استعمل الجيش حوالي ثمانية آلاف جمل وألف من خيل وعدد غير محدّد من البغال والقوارب الصغيرة. 53

مع الأسف لا توفّر المصادر التي بحوزتنا معلومات عن طريقة تزويد هذه الحملة بالماء والطعام الذي لا يتوفّر في الصحراء. ويمكننا افتراض أن القوات الشريفة كانت تتوفر على كميات لا بأس بها من الغذاء الذي يتمثل في فطائر التمر والخبز والفول المطبوخ والمجفف [البِصارَة] واللحم المجفف [الخْلِيع] بالإضافة إلى آلاف القرب المملوءة بالماء. ويبدو انّ قائد الحملة قد التجأ خلال رحلته إلى مصادرة الطعام من القبائل. وقد حصل هذا الأمر مثلا في منطقة أرَوان حيث افتكّ عددا من الجمال التابعة لعبد الله بن شين المحمودي. وبفضل لم يفتقر جيش الحملة المغربي إلى الماء[642] المرشدين ذوي الخبرة في المسالك الصحراوية وهو ما كان يرقى إلى درجة "المعجزة". ولكنّ الدعاية السلطانية لم تتردّد في استعمالها كما سبق وأن بيّنا في الجزء الأوّل للتأكيد على قداسة السلطان. 54

عمل حكام المغرب طيلة القرن السادس عشر وكانوا مهدّدين بأنواع كُـثْر من الأعداء على إنشاء نظام دفاعيّ فعّال قائم على تشييد وترميم قصبات وحصون تمسح كامل تراب السلطنة. وأسّس السلاطين على غرار الموحدين والمرينيين في أقصى الصحراء و شرق المغرب عشرات القصبات ذات الهندسة البسيطة : حيطان من الطين المخلوط بالحجر تدعمها أبراج مربّعة ويتوسّطها فضاء فارغ حيث ينصب الجنود خيامهم. وحسب الجنابي ومرمول تجاوز عدد القصبات الثلاثين كان أهمّها بكلّ من فاس ومكناس ودَبدو وتازة والقصر الكبير والرباط وتَافِتْنا وازمّور واسفي وأصيلة وتطوان وتَزُوطة. 55

وكعادته واصل أحمد المنصور عمل أسلافه في دعم الجهاز الدفاعيّ. فلحماية مدينة العرائش من الأطماع الإسبانية والعثمانية شيّد السلطان سنة 1582 حصنين كبيرين سماهما النصر والفتح. كان هذا الأخير وقد بني في ستة أشهر حسب فنّ التحصين المتداول في أوروبا آنذاك يحتوي على ما لا يقل عن ستين قطعة مدفعية بالإضافة إلى ثلاثمائة جندي . ولحماية أفضل لقصبة الرباط[643] نظامي من أصحاب المكحلات موجودين على الدوام المعروفة بصمودها قام السلطان بترميمها وببناء حصنين بارزين. كما تمّ تعزيز قصبة تازة وهي الباب الشرقيّ للمغرب ببناء حصن بارز يمكن أن يأوي قطعا مدفعية. وقام السلطان الشريف ببناء تسعة حصون بفاس عاصمة الشمال وذلك لحماية المدينة ومراقبتها من بينها . وتمّت إعادة ترميم قصبة العاصمة مرّاكش لإيواء[644] خمسة حصون لا تزال قائمة الى اليوم الحامية العسكرية الرئيسية والقصر السلطانيّ كما أسلفنا. وعلى بعد إحدى عشر ميلا إلى جنوب هذه المدينة شيّدت قصبة تسمّى القاهرة لمراقبة فجّ بِدْوان على الطريق الرئيسية الرابطة بين مراكش وسوس. ولكن استُعيض عنها بقصبة تاجِداشت ابتداء من سنة 1602 . وبذلك مكّنت هذه المجموعة من القصبات والحصون المخزن من مراقبة[645] لأسباب نجهلها المدن الكبيرة ومراكز الاتصال الاستراتيجية ومنابع الماء الضرورية لقبائل البدو الرحّل وشبه . وكانت أغلب هذه المنشآت العسكريّة رمزا لدولة في طور التمركز أكثر منه لدولة[646] الرحّل تسعى للحماية من هجوم محتمل من البلدان القويّة المجاورة. 56

ضعف الأسطول السلطاني

حافظت مختلف الدول المغربية في العصر الوسيط على أسطول كبير لقيادة العمليات العسكرية في الأندلس ولحماية مضيق جبل طارق ونقل الجيش إلى المغرب الأوسط . لكن تدمير الأسطول المريني[648]. وقد حاول المرينيون الحفاظ على هذا التقليد[647] وافريقيّة تحت حكم السلطان أبي الحسن [1331-1349] وتراجع المسلمين في الأندلس مركز التقاليد البحرية في الغرب الإسلامي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أعلن نهاية هذا التنظيم. وعلى الرغم من مجهودات السلطان أبي عنان [1349-1358] فقد عمّت الفوضى والاضطراب المغرب الذي أدار ظهره إلى البحر. ولم يساعد فقدان العديد من الموانئ اثر احتلالها أو تدميرها من طرف القوات الايبيرية في القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر في نموّ النشاط البحري. فباستثناء بعض القوارب الصغيرة كانت الملاحة المغربية تتوقف على المراكب الأوروبية بشكل حصري فما بالك بالمجال العسكري[649]. 57

وبما أنّ اسبانيا والبرتغال كانتا تدركان أنّ نموّ الأسطول المغربيّ يمكن أن يمثّل خطرا على الحركة بين المستعمرات الأمريكية والإفريقية والهندية فقد فعلت ما بوسعها لمنع الملوك المغاربة من امتلاك أسطول. كانت الموانئ المغربية في النصف الأول من القرن السادس عشر تتعرض للهجوم بشكل منتظم وكانت السفن الحربية الراسية فيها تتعرض للتدمير وهو وبنو مَعْدِن بالجنوب الشرقي[651] وتَرْكوكو سنة 1517[650]عرفته مراسي العرائش سنة 1504 . ونتيجة ضعف الأسطول المغربي توقف النشاط[652]لتطوان سنة 1544 على سبيل المثال البحري تماما في ميناء اسفي وهو أهمّ ميناء في ذلك الوقت سنة 1552 بسبب مقاطعة . كما تؤكّد المصادر الأوروبية أن المغاربة يجهلون أبسط التقاليد البحرية[653]السفن الأوروبية . وعند بروز[654]مثل استخدام البوصلة والخرائط الملاحية وقيادة السفن وصناعة قطع الغيار الزيدانيين لم يكن للبلاد اسطول ولم يكن لها تقاليد بحرية راسخة. 58

وبعد إعادة توحيد المغرب أدرك السلطان محمد الشيخ المهدي الذي لم يكن يملك أكثر من أن تحقيق استقلال البلد وتحقيق المكانة الدولية يوجب عليه امتلاك[655]ثلاث مراكب شراعية أسطول قوي و لتحقيق ذلك كان يعول على دعم عدد من البلدان الصديقة مثل فرنسا . كما حاول أيضا إحياء[657]وعلى العلوج من أصحاب الخبرة في الشؤون البحرية[656]وانگلترا التقاليد البحرية في بعض موانئ المغرب مثل الرباط وبادِس. ففي الفترة الفاصلة بين 1550 . ورغم أن محمد[658]و1557 تمّت صناعة ستة سفن في الميناء الأول وأربعة في الميناء الثاني الشيخ قد بذل مجهودات جبارة في هذا المجال فإن وتيرة الإنتاج ظلت بطيئة وكانت النتيجة ضئيلة بالمقارنة مع الإنتاج العثماني أو الأوروبي. ويذكر ف. بروديل مثلا أن ميناء بلوباك بألمانيا كان ينتج لوحده في المتوسط ستين قاربا سنويا في نفس الفترة. وبذلك تكون الصناعة الشريفية بعيدة عن ذاك المستوى. 59

ولمجابهة الطموحات العثمانية وحماية السواحل المغربية واصل السلطان الشريف عبد الله الغالب العمل الذي بدأه والده. وخلال سبعة عشر سنة من الحكم انتجت ورشات الرباط . ويعود التحسن النسبي للصناعة البحرية[659]وبادِس وتطوان تقريبا أربعين قاربا وسفينة بشكل رئيس إلى الوجود الأندلسي القوي في موانئ السلطنة الشريفة. وهذا الوجود أعطى زخما جديدا للقرصنة التي ظهرت بشكل خجول في المغرب في القرن الخامس عشر. بالفعل فبعد استقرار سعيد بن فرج الدُغالي في المغرب أصبح الباعث الحقيقي للقرصنة في الرباط وتطوان. وانطلاقا من هذين القاعدتين أطلق عشرات الغارات الناجحة على .[660]السواحل الإيبيرية وجزر الخالدات 60

وخلال فترة الحكم المضطربة لعبد الملك ظل عدد السفن الشريفية مستقرا. وكانت المعدات و قطع الغيار تستورد من انگلترا لما كانت العلاقات بين البلدين وثيقة والمصالح . كان عبد الملك قد تأثر بفترة إقامته في إيالة الجزائر لذلك حاول تشجيع[661]مشتركة . ورغم أن[662]القرصنة وتحقيق نشاط يحقق عائدات مالية وضمان نوع من الاستقلال المالي حجم الأسطول المغربي كان يضاهي نظيره الجزائري فقد كان يفتقد القوة والجودة مقارنة .[663]بهذا الأخير حيث أن البلد كان يفتقر للتقاليد والخبرات البحرية 61

ولإنجاز المشروع الثلاثي الأبعاد الذي وضعة أسلافه سعى السلطان الشريف أحمد المنصور إلى توفير أسطول قوي للمغرب طوال فترة حكمه. وإذا صدقنا الدعاية التي كان يقوم بها المخزن فإن جميع الحملات العسكرية مثل غزو الواحات الصحراوية والسودان والمشاريع الاقتصادية مثل إقامة معاصر السكر كانت تهدف إلى توفير المصادر المالية الضرورية . ومع ذلك فإن ندرة[664]لإنشاء أسطول قوي لحماية التراب المغربي وإعادة فتح الأندلس المعلومات لا تسمح لنا بمتابعة السياسة البحرية للسلطان الشريف. إذ لا تخبرنا المصادر المتوفرة إلا عن بعض فصول تلك المحاولة ولا تمكننا من الحصول على رؤية عامة. وليس بوسعنا إلا أن نقر بأن السياسة البحرية لأحمد المنصور قد فشلت عموما ما عدا القرصنة التي بقيت مستمرة بفضل عزيمة قراصنة الرباط حتى بداية القرن التاسع عشر بشكل متقطع. 62

ووفقا للمعلومات التي بحوزتنا كان يبلغ عدد القوة البحرية الشريفية ألفي رجل موزعين أساسا على موانئ الرباط والعرائش وتطوان واسفي وأگادير. ويمثل الأندلسيون والعلوج ثمّ[665]لأسباب واضحة العمود الفقري لهذه القوة التي كانت تحت إمرة الريس إبراهيم الشّط 63 .[667] ثم الريس القلفاط الأندلسي المشهور في المصادر الأوروبية[666]الريس شعبان

بالإضافة إلى الاسطول الذي ورثه عن أسلافه حاول السلطان بجميع الطرق المتاحة الحصول على سفن جديدة لتعزيز أسطوله. وتشير المصادر الأوروبية إلى أن ورشة الرباط . ولكن الإنتاج المحلي لم يكن كافيا لتلبية[669] وثمانية في 1585[668]أنتجت ستة سفن في 1584 احتياجات البحرية السلطانية على ما يبدو وهو ما دفع المنصور الذهبي إلى مواصلة استيراد 64 المعدات وحتى السفن من أوروبا ولا سيما من انگلترا.

فإن السفن كانت تشترى بسعر باهض.[670]وإذا كانت المعدات تستورد مقابل ملح البارود ففي 1583 اقتنت السلطنة من انگلترا عشرة سفن تبلغ حمولتها مائتي طنّ بسعر خرافي . ويدل الثمن الباهض لهذه السفن على أن السلطان[671]يبلغ مائتين وثمانين ألفا دوقية الشريف كان يصر على امتلاك أسطول ضخم وقوي لتحقيق مشاريعه. فتكلفة صنع سفن تبلغ حمولتها أربعمائة طن لم تكن تتجاوز في نفس الفترة الخمسة آلاف دوقية. وبنفس هذا الثمن كان يمكن للسلطان شراء ستة وخمسين سفينة عوض عشر. هل كان السلطان يجهل هذه الحقيقة؟ بالطبع لا ولكنه يفتقد لأيّ خيار آخر باعتبار عدم قدرته على الشراء من الأسواق المتوسطية والأوروبية الأخرى. فلاعتبارات مختلفة كان الإسبان والعثمانيون يمتنعون عن السماح للمغرب بامتلاك أسطول يمكن أن يهدد مصالحهم في أي وقت كما أن العلاقات مع دول الشمال الأوروبي كانت مفقودة. وتبعا لذلك فإن انگلترا كانت تستغل الموقف لبيع سفنها بأسعار ملتهبة. وحتى هذه الأخيرة لم تكن راغبة في أن يحصل المغرب على أسطول ضخم قد يهدد مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية وهو ما يفسر أن هذا النوع 65 من المعاملات لم يحدث سوى مرة واحدة.

ورغم ندرة المعلومات يمكن أن نجزم بأن الأسطول المغربي في عهد أحمد المنصور ظل ضعيفا. ففيما يخص علاقاته مع العالم فإن البلد كان يعتمد على القوى الأوروبية والمتوسطية وكانت حركة السفراء المغاربة تقوم دليلا على ذلك. فالبعثات المغربية لم تتمكن طوال فترة حكم المنصور من السفر إلى الخارج إلا عن طريق مساعدة السفن الأوروبية أو العثمانية. وعلى سبيل المثال فقد ظل السفير التَمْگرُوتي محبوسا في ميناء تطوان عدة أشهر في وفي سنة 1600 طلب السلطان الشريف من ملكة انگلترا أن[672]انتظار وصول سفينة عثمانية 66 .[673]تأجره سفينة لحمل البعثة المغربية

وإذا كان السلطان قد عجز عن إنشاء أسطول قوي لتحقيق طموحاته الخليفية والانتظارية في البحر المتوسط فقد استغل هذه التجربة لغزو السودان. فلتسهيل تنقل قواته ومفاجأة العدو قام المنصور بإنشاء العشرات من القوارب القابلة للتفكيك والتي تستطيع حمل المدافع. كانت هذه القوارب ناجعة هناك وقد مكنت القوات المغربية من الاستيلاء على 67 .[674]العديد من المواقع الحصينة على طول نهر النيجر

فقد ظهرت في[675]أما القرصنة "تلك الصيغة التكميلية للحرب الكبرى" بحسب تعبير بروديل المغرب خلال القرن الخامس عشر ولقيت دعما من الزيدانيين لا سيما السلطان عبد الملك. وتبعا لذلك ظهرت العديد من معاقل القراصنة في بادِس وتطوان والعرائش والرباط. وبعد توليه الحكم أدرك السلطان أحمد المنصور أن القرصنة كان يمكن استخدامها كوسيلة ضغط سياسي ناجعة أو كنشاط اقتصادي يدرّ عائدات لا بأس بها. لذا حاول تدعيمها و 68 تنظيمها.

وبالرغم من وجود العديد من معاقل القراصنة في كامل أرجاء التراب المغربي فقد أصبحت الرباط [سلا الجديدة حسب الكّتاب الأوروبيين] القاعدة الرئيسية للعمليات في فترة حكم السلطان المنصور. كان قراصنة تلك المدينة وهم أساسا من الأندلسيين وبعض العلوج . ولم تقتصر "هذه القرصنة على[676]يوجهون عملياتهم ضد جزر الخالدات وشبه جزيرة إيبيريا الهجمات في عرض البحر فالقراصنة كانوا ينفذون عمليات برية تهدف إلى الاستيلاء على . ففي شهر يوليو 1586 تمكن أسطول الريس القلفاط من[677]الأموال وأسر القرويين" الوصول إلى جزيرة لانزاروت واستباحة أهم موانئها. وقد تم أسر أكثر من ثلاثمائة شخص والعودة إلى الرباط بغنيمة ضخمة. وفي سنة 1593 قامت غارة من رجال الريس شعبان . و يبرز هذين المثالين الطابع الربحي للقرصنة في الرباط وهو[678]بأسر أكثر من ستين رجلا أمر لم يكن ليغفل عنه السلطان. كان هذا الأخير يرغب في السيطرة على مكامن القراصنة عبر ضمها مباشرة لدائرة نفوذه. ولتحقيق ذلك عين حاكما غريبا عن المجموعتين الأندلسية والعلجية كما عين بنفسه الريس بظهير سلطاني. 69

في رسالة غير منشورة أمر السلطان قائد الرباط مدّ القراصنة وكان يطلق عليهم تسمية المجاهدين والمرابطين والغزاة بكلّ الدعم اللوجيستي اللازم لحملاتهم ومعاملتهم بشكل جيّد. وفي نفس الوقت أصدر أوامره بمراقبة الميناء بشكل جيد والتثبت من عدم نقصان . ونتيجة لذلك اكتست مدينة الرباط أهمية قصوى لا سيما في[679]قسم الغنائم الذي يعود إليه مجال القرصنة وقد تنامت هذه المكانة بشكل مطّرد بعدما احتضنت المدينة بعد عقد واحد فقط من وفاة السلطان الشريف "الجمهورية" الأندلسية وقراصنتها الذائعي الصيت الذين أطلقت المصادر الأوروبية عليهم تسمية قراصنة سلا. 70

NOTES

566. Andrzej Dziubinski, « L'Armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque des sultans de la dynastie saadienne », *Hespéris-Tamuda*, nº XIII, 1972, p. 61-94.

567. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 10.

568.. الفشتالي، مناهل الصفا، ص176

569. Jorge de Henin, *Descripcion*, p. 45, p. 65-65, p. 71, p. 83 et p. 117 ; Henri de Castries, *SIHM*, France, p. 34-35 ; Bartholomé et Lucile Bennassar, *Les chrétiens d'Allah*, p. 478-493.

ويمكن إيراد أسماء علي زرقون الميّورقي وخَيْران الباسكي وعلي البُرتغالي وكردين المُرسي ونبيل البُرتغالي ومحمود الاشبيلي ولبيب الباسكي وخيران الباسكي وأحمد الكَلابري ومصطفى بومبَرْدَس الخ.

570.. الفشتالي، مناهل الصفا، ص67

571. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 26 et p. 32.

572. *Ibid.*, p. 144.

573. Henri de Castries, *SIHM*, France, t. II, p. 51.

574.. الناصري، الاستقصا، ج 7، ص57 - 59 وص71-73

575.. مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 12598، و60-63

576. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. II, p. 193-194 et p. 222-225.

577. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 30, p. 96 et p. 144.

578. *Ibid.*, p. 156.

579.. عبد الله گنّون، رسائل سعدية، ص219

580. Anonyme, *Description du Maroc*, p. 107, p. 124, p. 125 et p. 130.

581. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 46.

582. Henri de Castries, *SIHM*, Espagne, t. I, p. 148 et Portugal, t. III, p. 221.

583. Edgard Boutaric, Institutions militaires de la France avant les armées permanentes, Paris, 1863 ; Charles Oman, A History of the Art of War in the Sixteenth Century, New York, 1937 ; M. E. Mallet and J. R. Hale, The Military organization of a Renaissance State : Venice ca. 1400 to 1617, London, 1984 ; Gilbert John Millar, Tudor Mercenaries and Auxiliaries, 1485-1547, Charlottesville, 1980 ; le même, « The Albanians : Sixteenth Century Mercenaries », History Today, nº 26 : 7, 1976, p. 468-472.

584. لا يعكس لفظ العرب هنا انتماء عرقيا أولغويا بل نمط عيش أي النمط البدوي.

585. الفشتالي، مناهل الصفا، ص110 و201.

586. الإفراني، نزهة الحادي، ص177.

587. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. II, p. 222.

588. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 130 ;. 47. الشهاب الحجري، **ناصر الدين** ص ،

589. *Ibid.*, p. 62-64.

590. *Ibid.*, p. 156.

591. Anonyme, *Description du Maroc*, p. 124, p. 125 et p. 130.

592. Andrzej Dziubinski, « L'armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque des sultans de la dynastie saadienne », *Hespéris-Tamuda*, nº XIII, 1972, p. 61-94.

593. يعني لفظ رحى في الاصطلاح المغربي قبيلة ويستعمل في المجال العسكري للدلالة على كتيبة متجانسة من ناحية الأصل الحقيقي أو المزعوم.

594. حوالة تارودانت، و71 و و220.

595. كان منصور بن عبد الرحمان في بداية الحُكم قائد الأندلسيين ثم أصبح قائد الصبايحية. وقد تمّ تعويضه في ذلك المنصب بجوذر باشا. وبينما كانت قوات سوس تحت إمرة عمر باشا كان محمود باشا يقود العلوج. ويبدو أيضا أن قادة زواوة وشراگة كانوا أيضا من العلوج في أغلب الأحيان. أنظر الفشتالي، مناهل الصفا، ص201-203؛ ابن القاضي، لقط الفرائد، ج 2، ص1087؛ Jorge de Henin, *Descripcion*, p. 33.

596. الفشتالي، مناهل الصفا، ص202-203.

597. حرفيا البواب أو حارس البناية.

598. حرفيا رفيق الطريق أو صاحب أو شريك.

599. عبد الله گنّون، رسائل سعدية، ص118.

600. الفشتالي، مناهل الصفا، ص96؛ القادري، نشر المثاني، ج 1، ص41-42؛ Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 252.

601. الفشتالي، مناهل الصفا، ص204.

602. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 254-258.

603. *Ibid.*, p. 48.

604. الفشتالي، مناهل الصفا، ص41.

605. نفسه، ص42.

606. نفسه، ص46-47.

607. نفسه، ص44-46.

608. نفسه، ص42.

609. Henri de Castries, *SIHM*, Espagne, t. III, p. 453.

610. الفشتالي، مناهل الصفا، ص42.

611. نفسه، ص43.

612. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 24-26.

613. الفشتالي، مناهل الصفا، ص33؛ Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 26.

614. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 46.

615. مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص66.

616. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 48.

617. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. II, p. 222.

618. Henri de Castries, *SIHM*, France, t. II, p. 210.

619. الإفراني، نزهة الحادي، ص174-175.

620. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 86 ؛ الفشتالي، مناهل الصفا، ص103-112.

621. الفشتالي، نفسه، ص191-193.

622. Bartholomé et Lucile Bennassar, *Les chrétiens d'Allah*, p. 20.

623. الفشتالي، مناهل الصفا، ص202.

624. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. II, p. 269.

625. Henri de Castries, *SIHM*, France, t. II, p. 47 ؛ الفشتالي، مناهل الصفا، ص201 - 202.

626. عبد الله گنّون، رسائل سعدية، ص177.

627. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 30.

628. *Ibid.*, p. 32.

629. Anonyme, *Description du Maroc*, p. 122.

630. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 82.

631. *Ibid.*, p. 144.

632. *Ibid.*, p. 104.

633. *Ibid.*, p. 80.

634. *Ibid.*, p. 82.

635. *Ibid.*, p. 200 et p. 506 ; Reinhart Dozy, *Supplément aux dictionnaires arabes*, t. II, p. 487.

636. الفشتالي، مناهل الصفا، ص264.

637. نفسه، ص96 وص116؛

Jorge de Henin, *Descripcion*, p. 175 et p. 197 ; Anonyme, *Description du Maroc*, p. 129.

638. الحسّاني، ديوان قبائل سوس، ص27-28.

639. عبد الله گنّون، رسائل سعدية، ص162-163.

640. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 80 ؛ مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص48-49.

641. Anonyme, *Chronique de Santa Cruz*, p. 97 ; Marmol, *L'Afrique*, t. II, p. 25 et p. 183.

642. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 210 ؛ الفشتالي، مناهل الصفا، ص136-137.

643. *Ibid.*, p. 104 ؛ نفسه، ص64.

644. محمد مـزّين، فاس وباديتها، ج 1، ص274-275.

645. Anonyme, *Description du Maroc*, p. 100.

646. Jorge de Henin, *Descripcion*, p. 199.

647. Christophe Picard, *La Mer et les musulmans d'Occident au Moyen Age*, Paris, 1997 ; le même, « La politique navale des premiers califes almohades : un système de gouvernement et de souveraineté », Patrice Cressier, Maribel Fierro et Luis Molina [dir.], *Los Almohades : problemas y perspectivas*, p. 565-584 ;

محمد شريف، "الأسطول السّبتي بين الجهاد والتجارة"، البحث العلمي، عدد 45، 1998، ص29 - 40؛ أحمد عزّاوي، "الأسطول : التجارة والقرصنة بين القرنين 12 و14"، عثمان المنصوري [إشراف]، البحر في تاريخ المغرب، ص74-81.

648. محمد المنّوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص107-113.

649. Henri de Castries, *SIHM*, Portugal, t. I, p. 4-5.

650. *Ibid.*, t. I, p. 18-20.

651. *Ibid.*, t. II, p. 128.

652. Robert Ricard, *Les Portugais et l'Afrique du Nord*, p. 344.

653. Henri de Castries, *SIHM*, t. II, Espagne, p. 58.

654. أحمد بوشارب، "محضر محاكمة بحّار برتغالي كان يتاجر بأسفي"، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد خاص، 1985، ص247.

655. Henri de Castries, *SIHM*, Espagne, t. I, p. 166.

656. *Ibid.*, t. I, p. 299.

657. *Ibid.*, p. 187.

658. Henri de Castries, *SIHM*, Portugal, t. IV, p. 399-402 et Espagne, t. I, p. 416.

659. Henri de Castries, *SIHM*, Espagne, t. III, p. 7 ; Andrzej Dziubinski, « L'Armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque des sultans de la dynastie saadienne », *Hespéris-Tamuda*, nº XIII, 1972, p. 61-94.

660. الفشتالي، مناهل الصفا، ص42

661. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. I, p. 188.

662. مجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص53

663. Henri de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination turque*, p. 49.

664. الفشتالي، مناهل الصفا، ص124، ص190، ص196-197

665. نفسه، ص204

666. نفسه، ص205

667. Antonio de Saldanha, *Crónica de Almançor*, p. 202, p. 238.

668. *Ibid.*, p. 94.

669. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. I, p. 503.

670. *Ibid.*, p. 27 et p. 158.

671. *Ibid.*, p. III et France, t. II, p. 107.

672. التمگروتي، النفحة المسكية، ص26-27

673. Henri de Castries, *SIHM*, Angleterre, t. II, p. 197-22.

674. الفشتالي، مناهل الصفا، ص151

675. Fernand Braudel, *La Méditerranée*, t. II, p. 616.

676. الفشتالي، مناهل الصفا، ص196-197

677. Alain Blondy, « La course en Méditerranée : le discours sur la captivité et la servitude », Sylvie Requemora [dir.], *Les tyrans de mer*, p. 43-57.

678. Bartholomé et Lucile Bennassar, *Les chrétiens d'Allah*, p. 257-260.

679. نسخة من مخطوط خاص بحوزة المؤلف